«بين النظام القوي والدولة الضعيفة» لسامر سليمان:

ماذا تعنيه دلالات الانفاق على الأجهزة الأيديولوجية، الثقافة، الأمن؟

القاهرة ـ «القدس العربي»

ـ من محمود قرني:

عن سلسلة مطبوعات «الدار للنشر والتوزيع» صدرت الطبعة الثانية من كتاب «النظام القوي والدولة الضعيفة» للباحث سامر سليمان أحد المجتهدين الجدد في مجال الاقتصاد السياسي، وأحد أبرز المنتقدين للصورة المهترئة التي وصل اليها النظام السياسي المصري في لحظته الراهنة، لذلك فانه منذ مقدمته يشير الى قناعته التي ترسخت منذ منتصف التسعينيات بأن أزمة التنمية الرأسمالية في مصر يمكن ردها ببساطة الى ضعف الدولة المصرية، ويفرق الباحث بوضوح بين ما يعنيه بالنظام القوي والدولة الضعيفة حيث يقول «ان ضعف الدولة المصرية يرجع الى طبيعة النظام السياسي المفتقد لأية قاعدة اجتماعية صلبة خارج جهاز الدولة» ويردف سليمان قائلا ومستكملا فكرته «المشكلة في مصر لا تكمن فقط في أنها ابتليت بنظام استبدادي هو من النوع غير التنموي».

ويبدو أن الباحث لا يفرق بين التحولات النوعية منذ ثورة تموز (يوليو) وحتى الآن ويعتبر هذه الفترة تأكيدا على النموذج الاستبدادي بأشكال مختلفة، وما يدفعه للتأكيد على هذا المعنى أن مصر أخذت فرصتها بين دول العالم الثالث من حيث المساعدات الدولية سواء كان ذلك في العهد السوفييتي أو الأمريكي ومع ذلك فشلت مصر حتى في انجاز مشروع محو الأمية.

ويرى الباحث ان الوضع المتردي الذي وصلت اليه مصر يفتح الطريق أو يجب أن يكون يؤدي الى جدل حقيقي حول المستقبل السياسي للبلاد، ويؤكد انه لم يعد من الوجاهة الحديث ـ على أي نحو ـ بما يشي بأن الاستبداد السياسي له ضرورات تنموية مؤكدا القول بأننا «لا نحصل من النظام القائم لا على التنمية ولا على الديمقراطية ولا عجب في هذا لأن هذا النظام قد تعامل مع الدولة باعتبارها جهازا للسيطرة القهرية على المجتمع لا جهازا لادارة شؤون هذا المجتمع».

والكتاب بالأساس هو رسالة الدكتوراه المعربة التي نالها الكاتب من معهد العلوم السياسية بباريس عام 2004، ويتضمن ستة فصول وخاتمة جاء الأول حول تطور حجم الدولة المصرية في ظل حكم مبارك والثاني عن تحولات توزيع الموارد على مؤسسات الدولة، الأمن أولا، والثالث حول الأزمة المالية وتأثيراتها على علاقة الحكومة المركزية بالاحداث المحلية والرابع حول الصراع السياسي والتوزيع الاقليمي للموارد العامة، والحملة الاستثمارية ضد الجماعة الاسلامية في الصعيد، والخامس حول الدولة الريعية وتحولها الى دولة جباية: التحولات في آليات تعبئة الايرادات العامة ونتائجها السياسية.

أما الفصل السادس والأخير فحول نهاية الدولة الريعية – الرعوية وصعود الرأسمالية المصرية بالاضافة الى خاتمة تحت عنوان «نجاح نظام وفشل دولة».

وسوف نحاول في عرضنا تجنب التفاصيل المتعلقة بالشأن شديد المحلية الى النقاط الجوانب التي تشكل شأنا عاما مشتركا بين معظم الأنظمة العربية لا سيما حول ما يتعلق بالأمن والثقافة كوجهي نقيض وكيف يتحولان مع الدولة الشمولية الى اداة من أدوات التدجين والسيطرة.

مصر: نموذج للدولة الريعية

يتناول الكاتب نظرية الريعية باعتبارها باتت شاغلا من شواغل خبراء الاقتصاد السياسي في مصر، ويتحدث عن ظاهرة الدخول الريعية أو الدخول الخارجية، حيث يرى أن الاقتصاد المصري شهد منذ السبعينيات تدفق العديد من الموارد الخارجية أو الريعية مثل المعونات الخارجية وتحويلات العاملين بالخارج، وينقل الباحث سامر سليمان عن جلال أمين قوله ان الدخول الريعية هي المحرك الأساسي للاقتصاد المصري منذ منتصف السبعينيات باعتبار أن مظاهر النمو في هذا الاقتصاد اقتصرت على دخل قناة السويس والبترول وتحويلات العاملين بالخارج، ويرى الباحث ان تأثير هذه الريعية كان سلبيا على الصناعة المصرية، ويشير الى انه يتناول هذه الظاهرة من منظور الاقتصاد السياسي بمعنى انه يدرس آثار انخفاض الايرادات الريعية ليس على الاقتصاد المصري، ولكن على الدولة وعلى السياسة، وبالتالي فهو لا يفصل بين جهود الشعب في مجالات مختلفة وبين هذه الريعية التي تحتاج الى جهد للتعامل معها والاستفادة منها بما في ذلك جهود أجيال من المثقفين والفنانين المصريين الذين مارسوا تأثيرا فكريا على العالم العربي وبذلك اصبح البلد الذي ينتمون اليه ذا أهمية استراتيجية في المنطقة، الأمر الذي يعطي للنظام السياسي القابض على الأمور في القاهرة الأرضية لكي يطالب بنصيب مهم من المساعدات الخارجية التي تقدمها الدول الصناعية. هذا وينظر الباحث في الأمر بعيدا عن المستوى النظري الاقتصادي المحض.

ويحاول الباحث ان يضبط مفهوما خاصا للسلطة السياسية تحت سؤال مهم هو «الدولة أم النظام السياسي»؟!، ويستعرض عبر سؤاله عددا من المدارس السياسية التي طرحت السؤال بشكل مباشر على النحو التالي: من الذي يحكم المجتمع؟ هل هي الدولة أم الحكومة، أم الحكام، وينتهي الباحث بما يسميه أهمية خاصة تميز النظام السياسي المصري الراهن وهي كونه نظاما تسلطيا أو استبداديا يفتقر للديمقراطية ويعتبره الباحث امتدادا لنظام الضباط الأحرار منذ تموز (يوليو) عام 1952 ويشير الى ان المقصود بالدولة الرعوية هي تلك الدولة التي تتحكم في موارد كثيرة تستطيع بواسطتها أن توزع الكثير من العطايا على بعض القطاعات النشطة من السكان، وهي بذلك تنجح في احتوائهم وتدجينهم. ويؤكد الباحث ان العطايا تبدأ من الدعم السلعي وتمر بالرعاية الصحية وتصل للتوظيف المباشر في جهاز الدولة الذي يعتبره الباحث أم هذه العطايا لأنه ـ كما يقول ـ يحقق قدرا عظيما من سيطرة النظام السياسي على الأفراد، ويرى سامر سليمان أن الدولة الرعوية في مصر هي الوجه الآخر للدولة الريعية، ويقول:

ما تحصل عليه الدولة من دخول ريعية يسمح للدولة الرعوية بالقيام بوظائفها في توزيع العطايا ومن ثم تحقيق السيطرة السياسية.

ويتساءل سليمان وهو بصدد التساؤل عن الثقة في البيانات التي حصل عليها من مصادر المالية المصرية، يتساءل عن حجم الفساد ويؤكد أنه يوجد في مصر بمستويات مرتفعة ففي عام 2001 صنفت احدى المنظمات العالمية الدولة المصرية في مرتبة متدنية حيث حصلت على 3,6 درجة من 10 في مؤشر الفساد، والذي تعتبر فيه الدولة فاسدة اذا حصلت على أقل من 5 درجات، ويصف سامر سليمان هذا الوضع بعدم الشفافية التي تدفع وزارة المالية الى التكتم الشديد على أمر موازناتها بدعاوى متهاوية مثل الأمن القومي، ويقول الباحث هنا في فقرة شديدة الأهمية: تقول السلطات المالية دائما ان الحفاظ على سرية الحساب الختامي يرجع لأسباب خاصة بالأمن القومي، على أنها لا تقول لماذا تستطيع دول كثيرة أخرى الحفاظ على أمنها القومي بدون التكتم على بيانات المالية العامة، وهي لا تقول ايضا لماذا تكون تلك البيانات متاحة للمؤسسات المالية الدولية وغير متاحة للباحثين وللمهتمين من المصريين، ويردف: الحقيقة أن غياب الشفافية في هذه البيانات لا يهدف الى التستر على الفساد، كما يعتقد البعض فالفساد بالتعريف هو تدفقات مالية خارجة عن القانون، وهي بهذا المعنى غير مرصودة في أية اوراق رسمية،

ويختتم الباحث بقوله:

التكتم في بيانات الحساب الختامي يهدف الى اخفاء التوزيع الحقيقي للموارد في داخل الدولة المصرية، فكما يقول رولف جولدشيد:

«الميزانية هي الهيكل العظمي للدولة منزوعا عنه كل أيديولوجيات التجميل، بعبارة أخرى النظم السياسية تقول انها تفعل أشياء كثيرة، ولكن ما تفعله الدولة حقيقة مثبت ومرصود في فواتير حساباتها».

الأمن. الثقافة. والانفاق على الاجهزة الأيديولوجية

في هذا المنحى يتناول الباحث زيادة نصيب الانفاق على الثقافة والدين في الانفاق العام ويرى أن النظام فعل ذلك لتعبئة آلته الأيديولوجية في حربه ضد الحركة الاسلامية، حيث يرصد الباحث قيام وزارة الأوقاف في تلك المرحلة بتأميم الكثير من المساجد الأهلية التي كانت تستخدم في الدعوة وتجنيد الأنصار للجهاد ضد الدولة.

ويستطرد سليمان قائلا: كان انفاق الدولة المتزايد على الدعوة الدينية ضروريا لضمان ولاء الدعاة الرسميين الذين يعطون شرعية دينية للنظام، تلك الشرعية التي أراد الاسلاميون أن ينزعوها عنه.

في الوقت نفسه يرصد الباحث زيادة الموازنة فيما يتعلق بالانفاق على العديد من المجلات والمطبوعات التي تدافع عن «الدولة المدنية»في مواجهة الدولة الدينية.

ويشير الباحث الى ان مشروع مكتبة الأسرة الذي تأسس تحت رعاية قرينة رئيس الجمهورية، كذلك زيادة الانفاق على البنية الأساسية للثقافة مثل بناء المتاحف والمكاتب والمسارح.

ويرى سليمان ان ذلك كان ضروريا لكسب تأييد المثقفين للنظام وهو ما يراه وقد حدث بالفعل، حيث انتقل العديد من هؤلاء الى جبهة التأييد العلني والصريح.

أما فيما يتعلق بالنظام التعليمي فيرى سامر سليمان ان النظام رفض الحل الليبرالي والحل اليساري وأبقى على التعليم المجاني، لكنه فرغه من محتواه الواقعي، فهو وان كان متاحا للجميع، الا أنه لا يقدم سوى خدمة شديدة السوء تؤدي حتما الى تخريج أجيال من أشباه الأميين، ويرد الباحث سبب تمسك النظام بالمجانية الى أن طريقة الدولة في تسيير الأمور تنتهج مبدأ الجمود السياسي التي تهدف الى تثبيت الأمر الواقع.

وينتهي الباحث الى نتيجة مفزعة لكنها حقيقية حول أوضاع الأجور في مصر لا سيما تردي رواتب المعلمين فيقول ان الاجور في مصر مرتبطة بالمكانة، فالمؤسسات التي تحصل على أعلى الأجور هي غالبا التي تحظى بالمكانة الأكبر في الدولة، ويضيف: اذا كان العاملون بالمؤسسات الأمنية يحصلون على أعلى الأجور في الدولة فان ذلك مرتبط بمكانتهم المركزية في النظام السياسي المصري والتي لا ينازعهم فيها أحد. وينتهي الى القول ان رفع أجور المدرسين يتطلب اذن رفع مكانتهم داخل النظام السياسي، وذلك صعب جدا على نظام مبارك المحكوم بالمنطق الأمني.

أما فيما يتعلق بالطبقة الوسطى فيراها الباحث تحتوي على فئات متنافرة في مستوى الدخل وفي شروط العمل وفي التعليم والميول الأيديولوجية ويراها تحوي جناحين أساسيين أولهما الطبقة المتوسطة التقليدية والمشكلة من أفراد يعملون بشكل مستقل في مشروعات صغيرة وهم أصحاب مستوى تعليمي محدود.

أما الطبقة الوسطى الحديثة فهي تلك الشريحة التي تمارس عملا ذهنيا سواء مارسته بأجر لدى الغير كالموظفين والمدرسين أو مارسته بشكل مستقل كالأطباء والمحامين، ويحاول الباحث ان يكشف عن التنافز الذي نشأ في صفوف الطبقة الوسطى بين شرائح صاعدة عبر القطاع الخاص وأخرى هابطة ويقول «ولكن في كل الأحوال هناك حالة من التباعد عن النظام ناتجة عن الاستقلالية المتزايدة عن الدولة للشرائح الصاعدة وعن التهميش المستمر للشرائح الهابطة تلك الفئات التي يراها الباحث تحمل حقدا وكراهية للنظام السياسي وذلك بسبب تدهور أوضاعهم الوظيفية والمعيشية بسبب تفكيك الدولة وبيعها وهي طبقة يراها الباحث لا تعطي أي مؤشر على الانتماء للدولة أو الايمان بدورها بالاضافة الى ما يراها انهيارا معنويا وأخلاقيا ناتجا عن الافتقار الى أيديولوجية تبرر الدور الذي تلعبه، ويرى الباحث في الاجمال أن هذا الاستقلال النسبي عن الدولة أدى الى نوع من السلبية السياسية ودفع البعض الى الانخراط في صفوف الاسلاميين ويدلل على ذلك بأوضاع النقابات المهنية بين الثمانينيات والتسعينيات حيث شهدت نقابات الفئات الأكثر استقلالا مثل الأطباء والمحامين والمهندسين صعودا كاسحا للتيار الاسلامي.

يقع «النظام القوي والدولة الضعيفة» في 316 صفحة من القطع الكبير وصدر عن منشورات «الدار للنشر والتوزيع».

قصيدتان

سعدي يوسف*

الشيوعيّ الأخير يتطوّعُ ...

أمضى الشيوعيُّ الأخيرُ، الليلَ، معتركاً مع الجاثومِ ...
كانت طائراتٌ تخطفُ الأطفالَ من نُعُمى أسِرَّتِهِم، وتعلو في الهواءِ
لتقذفَ الأطفالَ
نحوَ بيوت أهليهمْ،
وكان الوردُ والرمّانُ يسترُ وجهَ «حيِّ السُّلَّمِ» المنخوبَ بالطلقاتِ ...
ثَمَّ مساحبٌ للمَرْكَبَات العسكريةِ
ثَمَّ مدافعٌ طلعتْ من البحرِ
السماءُ ثقيلةٌ حمراءُ
شمسٌ في الهواء القرمزيّ تكادُ تذوبُ ...
لُبنانُ المُولولُ يُدفعُ الأمواجَ مُدَّرِعاً
ويغطسُ في القرارِ ...
.....
.....
.....
يقولُ «س»:
كأننا في 82 ...
يا ما أعذبَ الذكرى!
تَطَوّعْنا
وقاتلْنا
وكنّا نحرسُ الرمّانَ في بستانِ «حَيِّ السُّلَّمِ»..

شهداء عراقيّون

كانوا أربعةً في «حيّ السلَّم»
قنّاصي دبّابات
ورواةَ قصائدْ
كانوا عشّاقاً لفلسطينَ
رفاقاً في بغدادَ
وأمسَوا أشجاراً في «حيّ السلّم»
أربعةً كانوا في «حيّ السلّم»

بيروت
1982/8/5

.....
.....
.....
الأعوامُ أيّامٌ
وهاأنذا أُثَبِّتُ خطوتي
متطوِّعاً
وأسيرُ منحدراً مع الأنهار ...

لندن 16.07.06

الشيوعيّ الأخير يتعلّم الهبوطَ بالمظلّة

في قريتي، غربيَّ لندنَ، عند رَبْضٍ من بحيراتٍ وغاباتٍ، ستلقى «معهدَ الطيرانِ»،
والأسماءُ خادعةٌ ... (كما يُحكى)
فلستَ ترى هنالك غيرَ مَدْرَجِ طائراتٍ من ذواتِ محرّكٍ فردْ
وغرفةَ من نسمّيه المراقبَ
ثم مقهىً من ثلاثِ موائدَ،
الأشياءُ خادعةٌ!
ألمْ تسمعْ بما نشرتْ صحيفةُ «إنْدِبَنْدَنْت» Independent
أن هذا المعهدَ المنسيّ في الغاباتِ قد زارته أمس أميرةٌ عربيةٌ تتعلّمُ الطيرانَ!
قلتُ: إذاً ... أكونُ هناك ؛ قد أحظى بلَفتَتِها الكريمةِ وابتسامتِها
إذا مرّتْ بنا مَرَّ السحابةِ.
ربّما عطفتْ عليّ
وحلّقتْ بي في سماءٍ من نعومةِ مُخمَلٍ
وسحائبٍ للنّدِّ والعودِ!
.....
.....
.....
الأميرةُ لم تكنْ في «معهد الطيرانِ»..
أبصرتُ الشيوعيَّ الأخيرَ هناك !
× أيُّ حماقةٍ جاءتْ بكَ ؟
ـ الأيامُ ...
جئتُ هنا لأعرفَ كيف أهبطُ!
.....
.....
.....
قلتُ: يا هذا، يجيءُ الناسُ كي يتعلّموا الطيرانَ!
قالَ: لقد تعالَينا
تعالينا
تعالَينا
تعالينا
إلى أن لم يَعُدْ خيطٌ ولو واهٍ يشدُّ عروقَنا بالأرضِ ...
إني الآنَ أهبطُ بالمظلّة
ربّما تتعرّفُ الأعشابُ رائحتي
فتمنحني الحياةْ!

لندن 26.06.06

نجيب محفوظ ونشيد الموت ـ الحياة

عبد الرحمن مجيد الربيعي*

■ امام الموت نقف برهبة، بعضنا يبكي والآخر تحتقن دموعه في قلبه. ومهما قطع المرء من سنوات وهو يتنفس هواء الله فان هذه اللعبة الغامضة المسماة «الحياة» لا بد لها من خاتمة. يتساوى كل الاحياء امامها، الصعلوك والامير، يتأمل المرء البشر وهم يملؤون الشوارع والمقاهي، ويضجون بالحياة وتضج بهم. وعندما يرى ما هم عليه من حفاوة بالشباب والمال وربما الجاه يدرك في الان نفسه وبدون اي تعسف ان كل هؤلاء الذين يراهم لن يكونوا بعد مئة عام مثلا، سيذهبون كل الى قبره ويخلون اماكنهم للاولاد والاحفاد، وهكذا تمضي اللعبة وكأن الحياة مارست معنا خدعتها ثم مدت لسانها لنا ومضت.

حديث الموت هذا يلح علي كثيرا، ما معنى ان تكون اليوم بكامل عافيتك وغدا تحت التراب؟ هذا المشهد تكرر امامي آلاف المرات حتى اصابني التحجر بعد ان قفزت مرحلة الخوف الى تقبل الآتي ابتعد ام قرب!

ورحيل نجيب محفوظ استطرادا لما اسلفت كان متوقعا ليس يوم الاربعاء 30 آب (اغسطس) من عام 2006 بل قبل هذا بكثير حتى قبل ان ينغرس خنجر الغدر في عنقه من احمق محتقن اعترف امام القضاة بأنه نفذ ما اريد منه وانه لم يقرأ الرواية مثار الجدال «اولاد حارتنا» ولا اي رواية اخرى له.

لقد عاش هذا المبدع بارادة وعزم نادرين، اصيب مبكرا بمرض السكري فانتصر عليه بانضباط كامل في الطعام والمشي والاعتدال. كأن الرسالة الابداعية التي ادرك بحدسه العجيب انها عهدته وحده دون ابناء جيله هي التي جعلته واقفا ليكتب. وهذا ما كان. وانا هنا لا اريد ان ابخس الآخرين قيمة ما انجزوه، ولكن الاستثناء المحفوظي هو في هذا الامتداد المتواصل والاضافات الحية.

قرأت نجيب محفوظ مبكرا جدا، منذ الابتدائية حيث كنا في ذلك الزمن لا نملك الا ان نقرأ حيث القراءة المتعة الممكنة فلا تلفزة ولا سينمات تقدم افلاما جيدة، حتى الراديو لم ينتشر بشكل واسع واذاعة بغداد لا تبث الا ساعات معدودة كل يوم ثم توقف بثها حتى اليوم التالي.

قرأت محفوظ بالتزامن مع اعمدة الثقافة العربية في مصر كطه حسين والعقاد وسلامة موسى، ومع محفوظ قرأت بعض معاصريه امثال احسان عبد القدوس، السباعي، محمد عبد الحليم عبدالله، وغيرهم الا انه كان الاستثناء بينهم اذ ان قصصه ورواياته لا تسلمك الى الحلم والوهم بل الى اليقظة والمجابهة وتأخذك الى حيث النبض الساخن للحياة.

كتبوا عنه كثيرا حتى لا يمكن ذكر عدد الكتب التي صدرت عنه، ليس في مصر فقط بل وفي كل البلاد العربية واصبح ضيفا دائما على البرامج الدراسية في المعاهد الثانوية والجامعات وكتبت عنه اطروحات عديدة، اي ان نجيب محفوظ قد رأى ثمار الشجرة المهيبة التي غرسها بل وتمتع بهذه الثمار ومع كل هذا لم يغادره تواضعه العجيب الذي عرفته منذ اول لقاء لي به في مقهى ريش عام 1975 حيث كان يخصص وقتا للقاء الادباء الشبان ولا يهمل اعمالهم التي يهدونها له. وكم يزهو الاديب الشاب عندما تأتيه شهادة منصفة منه، واعترف لكم ان هذا ما حصل لي عندما اهديته روايتي البكر «الوشم» فجاء ليحدثني والآخرين عنها.

واقول ان محفوظا بقدر ما يتعلم الشبان منه فهو ايضا يتعلم منهم، يصغي اليهم، يتعرف على هواجسهم، يتظاهر بانه شارد عنهم، ولكنه كان يصغي اليهم، يتجدد بهم، يعرف الى اي مسار تمضي الاحداث. وعندما يكتب فانه يواصل دور الشاهد الابدي على ما يجري. وبذا اصبحت رواياته وكأنها تاريخ مصر الحديث قبل ثورة يوليو 1952 الى ايامنا هذه حتى انه اخذ يوثق الاحداث الكبيرة التي شكلت منعرجات في تاريخ مصر مثل اغتيال انور السادات في روايته «يوم قتل الزعيم».

وقد علمنا نجيب محفوظ كيف نحتفي بالمكان. نتوقف عنده، نعيد تشييد ما تهدم منه فينهض من جديد روائيا. واذكر انني في زيارتي الاولى لمصر السبعينيات ترافقت مع اخي الروائي جمال الغيطاني الى عالم نجيب محفوظ، ازقته وحواريه وابطاله الذين تجددوا بالآتين من نسلهم او المصطلين بهمومهم اذ كانت رؤية هذا العالم بما فيه مطلبي الملح من زيارة القاهرة.

لم يكتب محفوظ من مسافة وبعين سائح بل كتب بروحية الذائب في هذه الجموع في دورانها المفزع في احشاء مدينة لا يدري المرء كيف تستوعب اكثر من خمسة عشر مليونا! كما لا يدري المرء كيف استوعب ادق ايقاعاتها وهواجسها هذا الروائي الراصد الحكيم!

يمكن القول ايضا ان نجيب محفوظ هو روائي المدينة بامتياز، وروائي الطبقة المتوسطة بشكل خاص اذ انه ابنها وصوتها، وجد نفسه يجوب احد احيائها الشعبية حيث ولد وقريبا من «سيدنا الحسين» الذي صلي على جثمانه فيه بناء على وصيته.

وحاول محفوظ ان يمزج بين العلم والدين واجدا الصلة بينهما في ملامح وسلوكيات ابطاله، ورغم تناوله للموضوعات الساخنة كالسجن السياسي والتعذيب الا انه لم يعرف الانتماء السياسي بمعناه الحزبي واحتفظ دائما بمسافة بينه وبين التعامل السياسي المباشر.

كما انه لم يعرف السجن السياسي او اتخاذ مواقف حاسمة مما يجري، وهو بشكل وآخر ظل ضمن السياق الرسمي دون ان يقاطعه او يوقع البيانات ضده ولم يحصل هذا الا مرة واحدة بتأثير من توفيق الحكيم كما ذكر ضمن اجواء مؤسسة الاهرام الصحافية وحيث استطاع الاستاذ محمد حسنين هيكل ان يجمع عددا من الكبار ليكتبوا فيها، امثال الحكيم والدكتورة بنت الشاطئ ويوسف ادريس ومحفوظ وآخرين.

ذكر محفوظ مرة انه موظف لدى القصة لذا كان يكتب بانتظام وبعدد معين من الساعات، فالرجل لا تعرف حياته الفوضى، بل النظام والنظام الصارم المفزع، من اليقظة الى النوم الى السيكارة وفنجان القهوة والذهاب للعمل او التمشي.

عندما رأيته للمرة الاولى في ريش التي مضى عهدها ذاك بعد الانفتاح الساداتي وغادر محفوظ جلسته الاسبوعية فيها انتبهت الى انه لا يدخن السيكارة الا بعد ان ينظر الى ساعته، ولا يطلب فنجان قهوة باشارة متفق عليها بينه وبين النادل الا بعد ان ينظر الى ساعته ايضا. وعندما ينتهي الوقت المحدد للمقهى ينهض مغادرا. واذكر انني توجهت له بسؤال حول هذا الانضباط الذي يناسب العساكر لا المبدعين بما فيهم من نزوات وفوضى وعصيان وخروج. وكانت في سؤالي لهجة الاستغراب فما كان منه الا ان اجابني بأن هذا الانضباط الذي تراه ما هو الا غطاء لفوضى الداخل. وقد نشر الحوار في مجلة «الاقلام» العراقية في منتصف السبعينيات.

كان الوجه الذي نراه من محفوظ في العمل والمقاهي والشارع يقابله الوجه الآخر الذي شكل حياته الخاصة التي ظلت احداثها ضربا من التوقعات والتخمينات حتى حصوله على نوبل فاقتحم بيته من الزوار والصحافيين ورأوا زوجته وبنتيه وكيف يعيش ولم تكن هذه الحياة معروفة الا لدى القلة.

وربما كان الحوار الطويل الذي اجراه معه الناقد رجاء النقاش ونشره في كتاب اشبه بسيرة ذاتية له حيث اعترف بين ما اعترف به ان عالم الليل والعوالم والعوامات والسكر والحشيش عاشه بنفسه وبكل ما فيه وعندما كتب عنه كتب من موقع العائش والعارف وليس المراقب.

محفوظ قدم لنا مكتبة روائية كاملة. وكأنه لم يكن وحده من كتبها بل كان جهد ورشة كاملة من الكتاب، واعتقد ان اعماله الروائية حوت ذرى مهمة مثل الثلاثية والشحاذ والكرنك واولاد حارتنا وصولا الى العمل الروائي الاستثنائي «ملحمة الحرافيش» فأحلام فترة النقاهة التي كان يدونها في ذاكرته ثم يمليها على من يكتبها له بعد ان عجزت يده عن ذلك اثر طعنة الغدر من ذلك الفتى المحتقن عماء وغباء.

نجيب محفوظ هو مدونة الرواية العربية في رجل وهذا الحكم لا ينال من الجهود السابقة او الموازية او اللاحقة وهي جهود كبيرة بدون شك.

رأيته آخر مرة في العوامة الشهيدة التي اصبحت ملتقى محبيه معه حفاظا على امنه وسلامته قبل عامين تقريبا واثناء انعقاد مؤتمر الرواية العربية وعندما وقعت عليه عيناي احسست ان حجمه قد صغر عن المرة السابقة التي شاهدته فيها وصافحته وقبلته بعد حصوله على جائزة نوبل عام 1988 وكنت احد المدعوين لحضور الاحتفال الذي اقامه الرئيس مبارك على شرفه في القصر الجمهوري.

بدا لي في آخر لقاء وكأنه ايقونة نادرة، وجودها الجميل وحده يجعلنا نحس بالامان رغم انه لم يكن يرانا او يسمعنا جيدا ومع هذا كانت ذاكرته حية، وعندما اوصل له اخي يوسف القعيد اسمي رحب بي وسألني بود: فين اراضيك يا عبد الرحمن؟ فقلت: تونس وردد عبارته الشهيرة: (يا خبر)، احسست وقتها انني احلم بأن اراه ثانية وهذا ما كان.

سلام الله عليك يا أبانا في حياتك وموتك، وثق ان لك ابناء شرعيين خرجوا من صلب عطائك، ومن مدرسة ابداعك ولن يمارس احد معك جريمة قتل الأب ابدا، أبدا، فأب مثلك نتباهى بالانتماء إليه.

* روائي من العراق

مجلّة مرآة الوسط التونسيّة تطلق موقعها على شبكة الأنترنيت

تونس ـ «القدس العربي»:

أطلقت مجلّة مرآة الوسط التّونسية موقعها على شبكة الأنترنيت في خطوة جديدة منها نحو مزيد الانتشار بعد احتفال هذه المجلة مؤخّرا بعيدها الخامس والعشرين.

ويأتي إطلاق هذا الموقع مع بدء المجلّة التّي تصدر شهريًا انطلاقا من مدينة سيدي بوزيد التّونسيّة مرحلة جديدة يمكن تلمّس مراحلها لمطابقة العدد الأخير من هذه المجلّة الّذي جاء متنوّع الاهتمامات وتضمن تجديدا شاملا في الإخراج والمحتوى .

ويقول محمود الحرشاني المدير ورئيس التّحرير، أنّ هذه الخطوة استوجبها حرص أسرة المجلّة الدّائم على التّجديد ومواكبة التّحوّلات الحديثة .

زمن مواضيع العدد الأخير للمجلّة نطالع ملفّا حول علاقة المشاهد بالتّلفزيون، تصدّره مقال حول البرامج الحواريّة في الفضائيّات، وملفّ بعنوان دائرة الأسماء عرّف بأصحاب الأسماء المستعارة في الأدب التّونسي ويمكن زيارة موقع مجلّة مرآة الوسط على هذا العنوان:

www.miraatalwasat.jeeran.com
www.miroireducentre.jeeran.com